

شعرية الطير والرحلة في القصيدة – الرسالة لدى الشيخ السماتي

The Poetic of the Bird and the Journey in the Poem - Letter of Sheikh Al-Samati

محمد قرّاش^{*}

1 جامعة ، الجلفة (الجزائر)، mkerrache@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ المراجعة: 2022/09/25

تاريخ الإيداع: 2022/02/15

الملخص :

يعد الشيخ السماتي أحد الشعراء الشعبيين الجزائريين المتميزين في العصر الحديث ،اجتمع له حد التميز في فنه الشعري وفي تجربته الانسانية على حد سواء .فالموهبة الذاتية ،والبيئة البدوية العربية ،العلاقة الروحية بالزوايا ،عشقه للحياة والترحال ،جميعها نسجت خطوط الصورة التي ظهرت بها تجربته الفنية اللامعة والقصيرة في الآن نفسه .وإذا تجاوزنا قصيدة الغزل الثائرة في منزعمها الحسي والتي تمثل ركنا اساسيا في تجربة الشاعر الفنية ،فإن ما يوازيها أو يضاهيها على الصعيد الفني هو قصيدة الرحلة والطير التي اصطلاحنا على تسميتها بالقصيدة –الرسالة في شعره إذ تشكل - بحق- أنموذجا فنيا متميزا يجسد في موضوعه ولغته وبنيته الرمزية واشواقه اللاهثة وحنينه النابض –ربما أكثر من غيره - عمق التجربة الشعرية لدى الشيخ السماتي .ولذلك تسعى الدراسة إلى استكشاف خصوصية تلك القصيدة بوصفها تركيبة لافقة من الشعر والسرد والرسالة من خلال البحث في ابعادها الفنية والانسانية والروحية.

الكلمات المفتاحية: السماتي ، الشعبي ، الشعر ، القصيدة ، الرحلة .

Abstract:

Sheikh Al-Samati is considered one of the distinguished Algerian folk poets in the modern era. He through researching its artistic, human and spiritual dimensions has distinguished himself both in his poetic art and in his human experience. The personal talent, the Arab Bedouin environment, the spiritual relationship with the angles, his love for life and travel, all woven the lines of the picture in which his artistic experience appeared Brilliant and short at the same time .If we go beyond the rebellious poem of spinning in its sensory aspect, which represents a cornerstone in the poet's artistic experience, what parallels it or matches it on the artistic level is the poem "The Flight and the Bird," which we used to call the poem - the message in his poetry, as it constitutes - rightly - a distinct artistic model that embodies in its

^{*} المؤلف المرسل

subject and language And its symbolic structure, its breathless longing, and its pulsating yearning - perhaps more than others - is the depth of the poetic experience of Sheikh Al-Samati. Therefore, the study seeks to explore the peculiarity of that poem as a remarkable composition of poetry, narration and message

Keywords: Al-Samati, Folk, poet, Poem, Journey

مقدمة :

يرتبط الشعر ببيئته ارتباطاً مركباً، ينشأ - أولاً - من العلاقة التكوينية التي تستجيب لها شخصية الشاعر، في ضوء ظروف التنشئة التي تمر بها، عبر مراحل العمر، وتتصل - ثانياً - بما تفرضه البيئة من القضايا والموضوعات، والأعراف، والأنماط الثقافية على وجدان الشاعر وعقله. لا شك أن تلك العلاقة هي علاقة تفاعلية؛ لأن الشاعر المبدع يستجيب لشروط بيئته من خلال عملية استقبال خلاقة، قوامها خصوصيته الذاتية بوصفه شاعراً، يغلب على مزاجه ومواهبه هذا الاتجاه أو ذاك من المنزع العاطفي، أو التأمل الابداعي، أو النشاط الانساني؛ الذي تصطبغ به شاعريته، ويميز شعره.

لقد احتضن الشعر الشعبي الجزائري أبعاد تلك العلاقة الخصبة بين الشاعر والبيئة الطبيعية، والاجتماعية، والثقافية، في مظاهر عديدة، ربما كان أشدها ظهوراً القضايا التي تتناولها القصيدة الشعبية، حيث تنبثق غالباً من استجابة الشاعر إلى أحداث، أو مواقف، أو شخصيات إنسانية، أو فضاءات طبيعية جاذبة، تقدمها البيئة الطبيعية والاجتماعية، أو تتفاعل ذات الشاعر مع عناصر وأنساق رمزية، تتخذها إطاراً فنياً أسلوبياً لاتجاه القصيدة. وربما يتميز الشعر الشعبي عن الفصيح بكونه يلتصق أكثر بتجارب الحياة الشعبية الحية، التي تبتعد - غالباً - عن آثار القولية الرسمية وتصنعها؛ لأن الأدب الشعبي - والشعر أبرز فنونه - " هو الذي يصدر عن الشعب؛ فيعبر عن وجدان الشعب، ويمثل تفكيره، ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية"¹

لقد كانت شاعرية الشيخ السماتي مثلاً لعلاقة تفاعلية مثمرة مع بيئته البدوية الصحراوية، ألقى عليها من حركية إحساسه الإبداعي، وتلقى منها معالم باذخة من الجمال و المفازات القاسية والحرمان المضني؛ فتجسدت في قصائده الشعرية ألواناً من الإبداع الأخاذ الذي تلونت به شاعريته، لغة، وتصويراً، وأساليب مميزة، ولذات حسية، وحنيناً لا يهدأ، جادت به روحه الإبداعية، التي لم يقدر لها أن تعيش إلا قليلاً، إذ شظفتها الحياة القاسية، والقدر العاجل، في أقل من أربعين عاماً، قضاهما الشيخ السماتي في رحلة دائبة وفورة من الإبداع، لم تنقطع لحظة، تشهد بها قصائده ومقطوعاته المتوالية.

هكذا استحققت شاعرية الشيخ السماتي أن تدرس ضمن محاور فنية مختلفة، ربما كان من أهمها، في ضوء رؤيتنا لشعره، تلك التجربة التي صيها بكل شوق وقلق في قصائد الرحلة والطير، التي اتخذت طابعاً رمزياً، جسد من خلاله تجربته الفذة في علاقته بالطبيعة وبالحياة، التي تشكل - كما لدى أي شاعر - منابع الشعر لديه²، وإحساسه المفعم بالمكان، الذي أعاد صياغته بتوقعاته الفنية و الذاتية، التي أمسكت بتفاصيله، و

القت عليه رداء الألفة، والامتزاج العاطفي، وحفرت في مواقعه منابعا لا تنضب، من الحنين الانساني. إنها التجربة التي نعين مفرداتها الفنية ضمن أقسام المقال :

أولا: الشيخ السماتي: ومضة العمر وكثافة التجربة الإبداعية

يعد الشاعر الشيخ السماتي، (أحمد بن البوهالي بن عبد الرحمن) الساسوي³ النائي والذي عاش بين سنتي (1869 - 1908)⁴ بين لحظة ميلاده (بواد الرتم)⁵ إلى لحظة وفاته بأولاد جلال من أكبر شعراء الملحون في العصر الحديث، وقد مثل شعره ظاهرة فنية بجودة إيقاعه، وسلاسة مطالعه، و ورقة أسلوبه وبراعة تصويره . عاش الشاعر حياة قصيرة مضطربة، مليئة بالقلق والإخفاق، ولكنها غنية وغامضة في تجربتها، فقد أخذت حياته مسارين متعارضين ومتداخلين في آن واحد : قضى أولهما مقيما حينما بعد آخر بزوايا المنطقة، زاوية " السماتات" التي أخذ منها اسمه، زاوية الشيخ المختار بأولاد جلال التي تعلم بها وأخلص لشيوعها، خاصة سيدي محمد الصغير ، وزاوية الهامل التي أمضى فيها وقتا يسيرا، مشرفا على الطلبة . وعلى نزوعه الروحي الذي ضبط دائما علاقته بهذه الزوايا، فقصدها للتبرك، والاشباع الروحي والعاطفي، واحتفظ في شعره بهذا المنزع، الذي جسده كثير من قصائده، إلا أنه لم ينجذب كليا إلى حياة الزوايا، ولم ينجرف في سلوك الطريق الصوفية، وبقي منجذبا مترددا، يحل بها حيناً، وينصرف عنها إلى تجربة الحياة الذاتية طورا آخر .

أمضى الشيخ السماتي مساره الثاني متنقلا بين المدن طلبا للأنس والمتعة، فلم تنقطع رحلته إلى الشمال حيث زار العاصمة، وحل بقصر البخاري والمدينة والبرواقية، وتنقل بين الجلفة، والاغواط، وبوسعادة وانغمس في مباحج الحياة، ينهب منها قدر ما أتاحت له الظروف من الرفقة والسفر والشراب والعشق . وكان شغفه بالحياة، وتطلعه الدائم إلى المتعة يدفعه إلى التبرم، و يمنعانه من الاستقرار في مراكز الزوايا، التي التحق بها. كان شعره تجليا لهذا التعارض البين، فتفتحت موهبته على فنون الشعر الملحون، برع في الغزل والوصف، و افتن في قصيدة المديح التي لم يسخرها للتكسب؛ بل جعل بعضها أساسيا منها تعبيرا عن عاطفة الولاء لشيوعه، وتجلى ذلك خاصة في نمط القصيدة - الرسالة التي تتأسس على مناجاة طائر القمر الذي يتحول معادلا رمزيا للرحلة، وبث المناجاة الروحية، والدعاء، والوصف، والرجاء، والمدح .

كانت الأربعون سنة التي عاشها الشاعر حياة قصيرة جدا في حساب الزمن المادي، ولكنها كانت عمرا كافيا في مضمار الموهبة الإنسانية، وزاخرة بألوان الإبداع والتجربة الإنسانية، فقليل من الشعراء الذين تحقق لهم ذلك الصيت العالي بين الناس وسيرورة الشعر بين المعاصرين، مثلما تحقق للشيخ السماتي - رحمه الله - فقد عوضت الموهبة المتقدمة قصر العمر، فملا توترها الإبداعي ساحة الشعر في جيله، كما بعد جيله، وانشغل الناس بشعر السماتي لحظة ميلاده، وتابعوا قصائده، بل ربما يمكننا القول: إنهم كانوا ينتظرون قصائده التي أصبحت محور المجالس في كل مناسبة. لقد " ذاع صيته و شهرته في كل أرجاء البلاد شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، وهذا ما يثبت لنا مدى استجابة الناس لأشعاره وإقبالهم عليها: (فقد اكتسبت شهرة واسعة ، فشعره يروي في كل مدن الهضاب العليا طولا وعرضا وفي بوادي وقرى الأوراس)...وكانت أشعاره تلقى في الاعراس و الولائم والأسواق الاسبوعية وهذا ما ساعد على ذيع صوته وشهرته..."⁶

يعود سر تلك السيرورة التي طبعت انتشار قصائده، في المقام الأول، إلى جودة فنه الشعري، وقرب مأخذه وسيولة لغته، إذ كانت شعريته فذة راقية تستجيب لها الأذواق، وتهفو إليها قلوب السامعين، وكان موضوعه الشعري لصيقا بالنفوس، يتدثر بالعشق، ويدور حول المرأة، ويجسد بواطن اللذة الإنسانية، التي لا تخلو من تمرد وجراءة، لم تكن معهودة " فأشعار السماتي كانت كلها موجهة إلى العشاق حيث تبنى التعبير عن مشاعرهم ملبيا رغباتهم، ولم تقتصر أشعاره على الحب بصفة خاصة، بل عبر عن الحب بصفة عامة؛ أي حب المرء لقومه وعشيرته :

عاشق ومعشوق قومي ناس فحول...سول خبري ثم في ناسي تلقاه⁷

كانت مطالع الشيخ السماتي استثنائية في إبداعيتها صفاء، وسلاسة. وعذوبة، تنفذ إلى المتلقي نفاذ السحر، وتفاجئ توقعه الجمالي؛ فتصنع لحظة القبول ولحظة السيرورة التي رفعت شعره، أو مطالعه، إلى مرتبة الأمثال السائرة في العشق، والرحلة، والشوق، والتصوف، والحنين، والرغبة، حتى ليتمكن أن نقول: إن الشيخ السماتي يعد بحق بحثري الموسيقى الشعرية الشعبية في سلسله الإيقاعية الذهبية، كما يمكن أن يعد نزاري الهوى في تمرده وانفتاح تصويره الحسي لتجربة العشق. فها هي بعض تلك المطالع مما لا يجمله عارف بالشعر الشعبي الجزائري :

مرضي طول طال يا راحة قلبي...وفي دايا حاروا الطلبة والنظار

...

يا عشاق نعيد عنكم ذا البلوى..وربي كي يبلي العبد بلا تعبار

...

أخيرة يجعل ذنوبي دارت بيك...مثل الدارة والقمر في مثالك

...

يا خوتي لوكان تدروما بيا...ويعذرني من فات لوذايق لمحان

...

يا خوتي ربي بلاني بل حيرة...دون انتاجي والصبر ما طقت عليه

...

تحول ياكافكر دادة وارحل..ودرقت علينا جبال الطوايا

...

بعدني واد الرتم فيه العدة..وجاني كودة قالعابر يدي ليه

لم يكتف الشيخ السماتي بارتياح عالم العشق الذي شكل أحد عوامل الجذب في شعره، بل نزع إلى مشاركة إبداعية فريدة مع كثير من متابعيه، إذ أنشأ القصائد تعبيرا عن مشاعرهم، بطلب منهم، ولم يكن هذا الفعل تكسبا منه؛ إنما جرى على مقتضى الاندماج في تجارب الآخرين، والتأكيد على إثبات جدارته الفنية في التعبير

عن تجاربهم؛ ولذلك لا نشعر بأثر التكلف أو التصنع في هذا النوع من القصائد؛ فقد سمحت له موهبته الإبداعية وقدراته التخيلية بإعادة بعث الواقع الذي يتناوله في صورة جديدة إذ "إننا عادة ما نصف إبداع الشاعر على أساس قدرته الخيالية المتميزة، وعادة ما نذهب إلى القول بأن خيال الشاعر هو الذي يمكنه من خلق قصائد، ينسج صورها من معطيات الواقع، ولكنه يتجاوز حرفية هذه المعطيات ويعيد تشكيلها..."⁸ بل إن القدرة الخيالية تمنح الشاعر إمكانية تقمص الموقف الانساني الذي يمثلها، من ذلك ما نظمته في قصيدة أم النون التي أنشأها لحساب شخص يدعى : دحمان

يا من جيتيني على المشية كودة... وارضك جوبة راها تعب مولها

غنيينا يا بنت لجواد العمدة... ذا الكلمة في خاطرك قديناها

في خاطر دحمان ظاهر لا جحدة... جبت على أم النون كلمة ترضاه

لم يقتصره فنه على الغزل، ولكن تجربته الإبداعية في كليتها الجمالية والعاطفية – على رأي محمد

الأمين- "مغلغة بدثار الغزل" حتى لو عبرت عن قضايا أو "عن تجارب ومحن عاناها الشاعر ومنها قصيدة "مرضى طول":

مرضى طول طال يا راحة قلبي... في دايا حاروا الطلبة والنظار

من سوسة لمدينة الباب الغربي... سمارة واحواز راية والدفار⁹

كانت شخصية الشيخ السماتي شخصية اجتماعية حية ودينامية، كثير الحركة والتنقل، حسن الود

والمعاشرة، رحب الصدر، ولذلك حظي بالاحترام والرضا أينما حل، وارتقت مكانته الاجتماعية بين الناس "

سواء على مستوى عائلته، وفي مدينة سدي خالد، أو خارجها، وهذا يعكس سمعته واحترامه من المجتمع

كشاعر، وكشخصية لها تأثيرها على من يخاطبها أو يعرفها...¹⁰، وقاده ترحاله الدائم إلى أن يبني علاقات

واسعة؛ فقد كان يتنقل بين المدن والحوضر والقرى الجزائرية، وكانت له صداقات وعلاقات اجتماعية

متعددة تربطه برجال، وقبائل، وعروش، لها وزنها في المجتمع الجزائري...¹¹

ورغم ما امتلكه الشيخ السماتي من شهرة واسعة بين معاصريه، مردها إلى طبيعة فنه واتجاه

شخصيته إلا أنه لم يسلم من معارضة البعض لشعره، خاصة شيوخ الزوايا ومريدوها، إذ احسوا بتمرده

وجرأته على الحدود الاجتماعية. كان ذلك الموقف أحد الملامح التي ميزت شاعرية السماتي، وصنعت طابعها

المتوتر، فبقدر ما أثار من الإعجاب والتقدير وسيرورة شعره بين الناس، بقدر ما تعرض للنقد والإنكار من

طرف الوسط الديني والاجتماعي المحافظ في عصره، خاصة تجاه الأشعار الغزلية "فالشيخ السماتي لم يحظ

بمكانة مرموقة لدى الشيوخ الزوايا، لقد عارضوا أشعاره بقوة؛ لأنها مرموقة بالعشق، وبوصف مفاتن

النساء دونما حرج؛ ولذلك تم نقده، وهدد بالتشهير به... لكنه واصل نظم الشعر الغزلي، يقول في إحدى

قصائده...¹²:

أنا عندي راس مالي في الدنيا... مسعودة والغير خاطئ عن بالك

مثلما كانت الترحال ديدن الشيخ السماتي في حياته القصيرة والصاخبة، كانت الرحلة أيضا إحدى أبرز قصائده الشعرية على الإطلاق، وربما تكون هي القصيدة التي صنعت شهرته الواسعة لما ضمنها من الأبعاد العاطفية والروحية والذاتية، وما صور فيها من الأماكن وذكر فيها من المعالم والشخصيات، حتى جعل منها ظاهرة فنية شديدة الحضور في ذاكرة المتلقي الشعبي، تستجيب لدواعي انسانية متعددة وعميقة في وجدانه، الرحلة، المكان، الطير، مغزى الرسالة، تجربة الشوق والبعد، وغيرها مما يعتلج في نفس القارئ من التجارب التي تستقطب الشعور الانساني، خاصة القارئ الذي عايش البادية والصحراء، وسلك طرقها واختبر سفرها، واندمج في فضائها الرحب، المسكون بالتأمل والحنين والتذكر. ربما لا نبالغ إذا اعتبرنا قصيدة الطير والرحلة محورا فنيا مركزيا في شعرية الشيخ السماتي، يتناظر فنيا وعاطفيا مع قصيدة العشق نفسها، ويشكلان معا بؤرة التجربة الإبداعية والانسانية في فنه الشعري بأكمله.

ثانيا : القصيدة - الرسالة : التجربة والبنية

في ديوان السماتي ست قصائد كاملة من هذا النمط المتميز هي (يا قمري ، يا حاذق الاطيار، يا قمري حيرتني ، بجوابي تعزم ، فرخ الحمام) ترتبط كلها بمقومات بنيوية واحدة، إذ هي تركز على بنية :قصيدة – رسالة ، تتصل بمناجاة القمري – حامل الرسالة، تنطوي على رحلة افتراضية متخيلة، تجسد في تجربتها نزوعا روحيا إنسانيا، يتمحور حول الاستغاثة بأحد شيوخه؛ الشيخ حمود الصغير شيخ الزاوية المختارية بأولاد جلال :

أنا قصدي فيك لمقام المختار...بلغ ما نوصيك لي تغدالو
عني راه بعيد جوبا والغيفار...عنو طاح الغيم نيل بكحالو
حمود الصغير عودلو ماصار...عني لا بد بخبري تغدالو¹³

أو الشيخ بن يوسف :

هنيئي للشيخ بن يوسف تغدى...واديلو عنوان مملوكه يقراه
أو بتذكر بعض خلانه الأوفياء والاشتياق إليهم بعد رحيلهم:
الي طالت في الدزاير غربتهم...وتركوني بجوابهم لا من جاني
ققلهم قلب السماتي متحيطم...ارفيق العشاق ليكم وصاني¹⁴

ومهما اختلف غرض الرسالة، فإن بنية القصيدة واحدة تستند إلى متتالية سرديّة، تتكرر في كل قصيدة من تلك القصائد، تبدأ بمناجاة طائر القمري، تحفيزه عبر المدح، أو تذكيره بفضله عليه، وصف طريق الرحلة وتنبيه الطائر – الرسول إلى بعض مخاطرها، تحديد المرسل إليه وتعظيم مكانته، تبليغ مضمون الرسالة الذي لا يخرج عن إظهار الشوق، أو الاستغاثة وطلب النصرة، مشفوعا بعتب واستعطاف.

هكذا تمضي قصيدة الرحلة لدى الشيخ السماتي؛ تمتلك في نمطها العام امتدادا فنيا في شعرنا الشعبي بوصفها رحلة متخيلة. يضمها الشاعر بعضها من تجاربه، ولكنها تأخذ لدى السماتي طابعا متميزا، منبثقا

من عمق تجربته الإنسانية، ومن فرادة أدواته الفنية، ولذلك يمكن تحليل عناصر بنيته قصيدته بتناول وحداته على الترتيب الذي تحتضنه بنيته الكلية، من أجل إبراز فاعلية تلك التجربة، وتكامل عناصرها :
أ/ مناجاة طائر القمري :

تتجسد المناجاة التي تشكل فاتحة القصيدة عبر أساليب مخصوصة، تبرز تلك العلاقة الحميمة بين الشاعر وطائر القمري، تستهل بالمناداة دائماً، ثم تنوع أساليب الاقناع والتودد لطائر القمري، من أجل أن يتهيأ لأداء الرسالة إما :

- عبر الامتنان عليه بفضل التنشئة والتدليل:

يا قمري نوصيك بجوابي تعزم...وياعزالمظيوم إدي عنواني

ربيتك صغير لسع لحملك دم...وفارح بيك دايرك تحت احضاني¹⁵

- أو عبر المدح وتمجيد أصله وفضله على الأطيّار، والاستعطاف بسوء الحال، وحق الجيرة :

يا قمري حيرتني وأنا محتار...من قدام اليوم قلبي بهبالو

هم الحبس وزاد ليا بالتفكار...وانت زدت الخاطري بعض اعلالو

ضرك راني عدت ساكن ليك جوار...والجار على الجار مولاه يسالو

ياك انت مولى المزاي في الاطيّار...واذا درت الخير مازال تنالو¹⁶

- أو بالعتب عليه بما سبق أن ناله من الخير والفضل :

يا قمري نوصيك بجوابي تعزم...واه الخير لي سبق كامل تنساه

ربيتك بالعزدايرلك سدة...ومن عزك في خاطرك وش مكافاه

فرقتك من والديك بلا جحدة...قبل انبات الريش وقرانك جبناه¹⁷

لا تمنح قصيدة الرحلة فرصة لسماع صوت القمري إزاء مناجاة الشاعر، ولكنها تمضي سريعاً إلى إجابة الطائر ضمنياً، و تحقق الرحلة افتراضياً بتصوير حركتها، ووصف طريقها، ولذلك تبدو المناجاة هنا صيغة رمزية فنية لتوظيف رمزية الطير أكثر مما هي تجربة فنية قائمة على التفاعل معه، و تشخيص دوره، فالشاعر مثلما يحدد مسار المناجاة، يبدأ رحلته موجهاً حركة الطائر إلى حيث الهدف الذي رسمه
ب/ رحلة افتراضية متخيلة :

يستجيب الطائر ضمنياً، ويبدأ رحلته في مسار يحدده الشاعر متوجهاً إلى مكان المرسل إليه، ولكن

الأبرز في تجربة الرحلة والذي يشكل حركة القصيدة ونشاطها الوصفي الإبداعي، هو تصوير طريق

الرحلة، معالمها البارزة موجهة بإحساس من الحيلة والحرص إلى زمن الرحلة ومكان انطلاقها

الحاصل نوصيك قدام لحذار...قفظ من لغواط مالك بسوالو

خوض على المخاليف والاشوار..واد الضلعة والشوايفيطوالو

الحيرش منو الزرق بلاد اوعار...كاف الفج يجي الدهوالقبالو

واد النثيلة والمقيد جار بجار...ختالة واصباع مسعد يطوالو

دمد واهل القاهرة صلاح كبار...سلمانة جاها الواد بتسيالو¹⁸

تمعن القصيدة في وصف معالم طريق الرحلة، في احتفاء رائع بالمكان وتفصيله، من جهاته المتعددة، ولا يخلو ذلك الوصف من اللمسة العاطفية التي تصبغ الوصف بروح انسانية شفافة، وتمنح الألفة بالمكان وأهله كما في قوله : (كاف الفج يجي الدهوالقبالو) ، أو قوله : (واد النثيلة والمقيد جار بجار) أو قوله : (دمد واهل القاهرة صلاح كبار) . و ترتفع اللمسة العاطفية حتى تصل درجة التفاعل حينما يظهر الإشفاق من مخاطر الطريق، وينبه القمر إلى الحذر، كما في قوله من قصيدة (ياقمرى حيرتنى) :

اصرف واخطي مخاتل كل اوعار...واد الركبة على يمينواوشمالو

بضافي في الواد لا تامن طيار...عدك لا بعض البر انيختالو¹⁹

أو في قصيدة : بجوابي تعزم

احذر في تابلاط عندك لا تعدم...صيادة يرموك بالحب ثمانى²⁰

ربما كانت طريقة الوصف التي انطوت عليها شعرية قصيدة الرحلة مرتبطة بنمط الصورة التي تجمع الحركة إلى السكون في تراوح بين الحالين، على رأي أحد الباحثين، حيث "استطاع شاعرنا السماتي تحقيق ظاهرة الحركة والسكون في قصائده والتعامل مع توتر للمادة وهدوئها عاكسا هاتين الظاهرتين بطريقة فنية ومحترفة تعكس قدرته الأدبية وترتقي بنصوصه الشعرية إلى مستوى الجمال والتذوق الأدبي"²¹.

ولعل أبرز ما تكون ظاهرة الحركة والسكون في قصيدة الرحلة؛ لأنها مؤسسة أصلا على فعل الحركة

التي تجسدها وقائع الرحلة المتخيلة. على أن هذا النمط من الصورة يستجيب لغاية التفاعل التي يتوخاها الشاعر في التصوير، الذي يمنح " النص ثراء وقيمة وخلودا ويشهي القارئ فيه، ويجعله يمارس فعل القراءة لمرات عديدة دون انقطاع، وهذا ما يجعله يعلق بالذاكرة الشعبية والثقافية، ويكون حاضرا في جميع النصوص التي تنسج بعده، ويصبح نصا مرجعيا"²²

يا مرسولي نحشمك في ذي المرة...اقصب لي خاطري ما جاء النوم

توصل لي راه شايح في الصحرا...سي الحشاني تقصده ظاهر معلوم

تخلو بعض قصائد الرحلة والطير من وصف الطريق لأن الشاعر قد وجهها إلى شيوخه وهو قريب منهم، وركز فيها على موضوع الرسالة نفسه : الاستغاثة بشيخه واستعطافه، والعتب عليه من التخلي عنه، وتبرز هذه الظاهرة في قصيدتين: الأولى قصيدة (فرخ الحمام) التي استغرقت بشكل كلي في تمجيد شيخ الزاوية المختارية محمد الصغير ، و بناها على وزنين مختلفين متراوحين :

فرخ الحمامة...شق الغمامة

رد السلامة...مني وكثر

.....

بالله يا فرخ الحمام اعزم ليا...توصل لي شور الطيب اللي ظاهر

شاكيه قولو ما صير بيا...بالغربة والضرم ما نيش صابر²³

أما الثانية فهي قصيدة (يا قمري) التي نظمها في شيخه بن يوسف، مادحا معاتباً له مستنجداً به:

يا قمري نوصيك بجوابي تعزم...واه الخير لي سبق كامل تنساه

...

هنيئني للشيخ بن سعدة تغدى ... واديلو عنوان مملوكه يقراه

سال عليه وزيد سكان البلدة...من يتعلق بيه كل الآخر بسماه

قلوراني حارزك وقت الشدة...صوراكتافي كيف نعيانستذراه

ج / مضمون الرسالة :

تستكمل قصيدة الرحلة لدى الشيخ السماتي بنيتها الفنية بإلقاء مضمون الرسالة، التي تكفل طائر القمري بحملها إلى المرسل إليه، ويختلف مضمون هذه الرسالة بين أغراض متعددة، ولكنها متكاملة في تجسيد تجربة القصيدة، فهي تجربة إنسانية مفعمة بالإحساس المشفوع بإظهار الشوق، وابداء الشكوى من صروف الأيام، ومعاناة الظلم، والحاجة إلى النصرة التي يريجوها الشاعر من شيوخه، الذين يتوجه إلى تمجيدهم و تعظيم مكانتهم وولائه لهم، دون أن ينسى الشاعر إظهار العتب والاستعطاف بسابق مودته وصدق اخلاصه. يستجمع الشاعر في قصيد الطير والرحلة عناصر ذاتيته الحميمة التي تكشف عمق إنسانيته وأصالته فنه، فيكون تبليغ الرسالة مقترنا بالكشف عن مضمونها، ولذلك يلحن الشاعر طائر القمري مقصده بتلطف بالغ، كما في قصيدة (يا قمري حيرتني)، التي يبلغ من خلالها شكواه إلى شيخه محمد الصغير (حمود الصغير):

أنا قصدي فيك لمقام المختار...بلغ ما نوصيك لي تغدالو

عني راه بعيد جوبا والغيفار...عنوطاح الغيم نيل بكحالو

حمود الصغير عودلو ما صار...عني لا بد بخبري تغدالو

قل خليت السماتي في لكدار...هاكذ وانت حي عبدك يطرالو

وفي قصيدة (يا قمري) يقتزن طلب النصرة مع التعظيم و العتاب لشيخه بن يوسف :

هنيئني للشيخ بن يوسف تغدى ... واديلو عنوان مملوكه يقراه

قلوراني حارزك وقت الشدة ... وصوركتافي كيف نعيانستذراه

لا هربة قاليك يا صيد الوهدة...ليس لي سواك ناصح نستـنـه

تسمح فيا عيب من جانب لعدا...ويقولو مملوك بن يوسف خلاه

شد السرج ومتن حزام العودة...وارفد سيف متين شفرة وسط جواه²⁴

أما قصيدة (بجوابي تعزم) فقد ضمنها رسالة الشوق إلى خلاته الذين غادروه، ولم يصبر عن بعدهم :

من عندي شق السحاب لهوم... وجبل قسوم يبانلك غيمه باني

الي طالت في الدزاير غربتهم...وتركوني بجوابهم لا من جاني

اتهلا من لربعا روح مسقم...وللبهجامقصاد تلقى شبـاني

ققلهم قلب السماتي متحيطم...ارفيق العشاق ليكم وصاني²⁵

تبدو قصيدة الرحلة والطير بنية فنية رمزية، يرتادها الشاعر لتجسيد تجربة إنسانية ذاتية، تختلف بعض مضامينها من قصيدة إلى أخرى، ولكنها تشترك في شعريتها الرمزية، حيث تغدو الرحلة مسارا فنيا رمزيا، يغذي الحنين إلى المكان، و سيتحضر مشقة الترحال في بعدها الرمزي نحو هدف أثير، ويتوسط طائر القمر بصورته الأليفة في السياق الاجتماعي الثقافي وعلاقته الحميمة بالإنسان، فقد كان إلى جانب حضوره في مناحي الحياة الانسانية والحضارية معادل التراسل الحميم، وناقل الرسالة، تعمر به البيوت والحواضر والمساجد، و ترتبط صورته بإحساس الأمان، وخاطر الشوق والانتظار، ولذلك تتردد في الشعر تجربة مناجاته ومشاركته العاطفية لتجربة الإنسان شوقا، أو اغترابا، أو تواصلًا، أو حينًا، وتقف تلك الأبعاد الثقافية والفنية جميعها ضمن الأغراض الرمزية التي يتوخاها الشاعر بتوظيفه لطائر القمر في قصيدة الرحلة.

تتأسس شعرية الرحلة والطير في القصيدة على معطين بارزين ومتكاملين: أولهما هو رمزية الرحلة نفسها بكل مكوناتها (القمر ، الترحال ، المكان ، الخطاب)، إذ هي جميعا عناصر ركبها الشاعر من منبع نشاطه الإبداعي التخيلي؛ ليخلق معادلا عاطفيا وجماليًا لتجربته الذاتية، وثانيهما صيغتها السردية التي تؤلف برنامجا سرديا يستجيب لتركيبة البنية العاملية²⁶ في التحليل السيميائي للخطاب؛ فهناك مرسل (الشاعر) يؤسس فاعلا هو (طائر القمر) من أجل موضوع قيمة (أداء الرسالة) من خلال الوصول إلى مرسل إليه (شيخ الطريقة ، الأصدقاء ..) بتعصيد عامل مساعد، هو الشاعر نفسه كذات محفزة، وعامل مضاد هو (مخاطر الطريق ومشقته) التي يمكن أن تعيق الطائر عن أداء مهمته .

فضلا عن تمثيلها برنامجا سرديا بامتياز ، فإن الصيغة السردية في قصيدة الرحلة تتيح ثراء جماليا وعاطفيا لا حد له، مليئا بإثارة التوقع والخيال في وقائع الرحلة، ومدلولاتها النفسية والعاطفية، وصحبها للمكان الذي يمكن أن يكون معلوما يثير الألفة، أو مجهولا يثير التساؤل والاستكشاف، فالقصيدة بمسارها السردية تلقي إلى قارئها بقطعة كاملة من الحياة المفعملة بالقلق الانساني، والحيرة، والشوق، الأحبة والاستعطاف لأهل الفضل والولاء. تمتلك قصيدة الرحلة شعرية غارقة في المنزع العاطفي والروحي لأنها تستوهم القوة من مصدرها الروحي: نصرته الشيخ الربانية وتستمد العون ببركاته وبرهانه في مواجهة ضيم الزمان وجور الظالمين، ولذلك يمكننا أن ننظر إلى قصيدة الرحلة والطير بوصفها قصيدة تجسد نزوعا روحيا جليا يمكن تلمس تجلياته في مستويات القصيدة جميعها .

ثالثا: قصيدة الرحلة والطير: شعرية المنزع الروحي :

يتجسد المنزع الروحي أولا في ارتباط أغلب قصائد الرحلة بمرسل إليه هو شيخ الطريقة، الذي يلجأ إليه الشاعر باعتباره شيخه، وسيده الذي يرجي نصرته، ويسعى في تعظيمه وتمجيده، وقد ذكر الشاعر اثنين من شيوخه هما: محمد (حمود) الصغير الذي درات عليه أكثر قصائد الولاء، ثم الشيخ بن يوسف. يقول في تعظيم حمود الصغير ضمن قصيدة (يا حاذق الاطيار) :

يا حاذق الأطيار...دير مزية

لتربة المختار...تديش ذا الوصية
 قل خديمك بار...يار ايسالاوليا
 تلقاه فال الخير...حمود الصغير
 استاذنا الصغير...اشكيه جود عليا
 عمرت بيه الأوطان...كنز الاخوان
 طاهرين الابدان ... بكامل التربية²⁷

وكما هو ظاهر فإن المدح والتمجيد لشيخه يقتربان بالشكوى وطلب النصرة، ولكن الظاهرة الأبرز هي أن التمجيد والشكوى ينطويان على أبعاد روحية، وليس مادية سلطوية؛ فشيخه هو (ريس الأولياء ، فال الخير ، الاستاذ، كنز الاخوان، طاهرين الأبدان، كامل التربية...نور الإيمان، هو البيت العتيق...)، ويتوسع المعجم الصوفي في إبراز المقام الروحي لشيخه محمد الصغير :

اشكيه عين الجود...سعد السعود .
 في عصرو مفروود...بالجود والعنايا .
 عزوة في الاكوان...نور الايمان .
 بالجود والاحسان...شفيع في الخلقية .
 يهدي للطريق...حمة الصديق .
 هو البيت العتيق...نوصيك ياهاذا .
 فكن له عشيق...به وثيق .
 يكون لك رفيق...في الآخرة والدنيا²⁸

هذه مفردات تجسد حقلا دلاليا روحيا صوفيا بامتياز ، وهو من منطلق هذا الاستحقاق الروحي يستوجب التعظيم. من الضروري أن نتساءل عن توجه الشاعر إلى ربط مثله الأعلى بشيخ الطريقة ومصيره برضاه ونجدته، فهو لم يلجأ لحاكم أو قاض أو رئيس قبيلة؛ إنما جعل مدده في العون والاستغاثة متصلا بالسلطة المعنوية التي يجسدها شيخه. وهذا المنحى في قصيدته ليس اعتباطيا؛ إنما هو تماهي بالمبدأ الروحي الذي يؤمن به الشاعر ويقده . لا يتعلق الأمر بالسلوك العملي الذي يختاره الشاعر في اتجاه الاستقامة أو التمرد ولكنه يتعلق أكثر بالنزوع النفسي والروحي الذي يحرك وعيه، وقناعاته الباطنية، فهو يدور حول نفسه في وقت الشدة؛ فلا يجد من معين، أو لا يقتنع بوجود معين، غير شيخه الرباني؛ فمبه كل ولائه واحتفائه . يتأكد المنزع الروحي لقصيدة الرحلة في صيغ العبارة التي يوضع بها نفسه أمام شيخه، فهو (مملوكك ، عبدك ، خديمك...) إبراز الشدة ولأنه لشيخه، وتصغير نفسه أمامه، يقول في قصيدة (القمرى) :
 حمود الصغير عودلو ماصار...عني لا بد بخبري تغدالو
 قل خليت السماتي في لكدار...هاكذا وانت حي (عبدك)يطرالو
 وفي قصيدة (يا ريس الاطيار) :

لتربة المختار...تديش ذا الوصية

قل (خدملك) بار...يارايسالأوليا

ويتكرر المعنى نفسه مع شيخه بن يوسف استعطافا له، إذ يقول :

هنيئي للشيخ بن يوسف تغدى ...واديلو عنوان (مملوكه) يقراه

قلو راني حارزك وقت الشدة ...وصوركتافي كيف نعيانستذراه

تسمح فيا عيب من جانب لعدا ...ويقول (مملوك) بن يوسف خلاه

ظل الشيخ السماتي وفيما لتكوينه الصوفي الذي أخذ منه اسم شهرته من زاوية " السماتات " وتنقل في مراكزه الروحية من الزاوية المختارية بأولاد جلال إلى الزاوية القاسمية بالهامل، ورغم أن الشاعر انقطع عن تلك المراكز، وانصرف إلى حركة الحياة الواسعة، وعبر في سلوكه وشعره عن عالم التمرد والرغبة، إلا أن وجدانه بقي مشدودا بعمق إلى ما استقر في ذاته من المنزع الروحي الذي تشربه في تلك المراكز ، ورسم رؤيته إلى المصدر الحقيقي للقيمة، والأمان، والسكينة في الحياة الانسانية؛ فانجذب طوال حياته لذلك المصدر متخذاً منه الملاذ الذي يأوي إليه، ويستصرخه عند كل شدة تعترضه

خاتمة :

يقف الشيخ السماتي – في نهاية المطاف - شاعرا سامقا في فنه، مثيرا في حياته، وتجربته الانسانية ، اجتمعت له عوامل النبوغ والتفوق، من تنشئة عربية أصيلة، إلى مرحلة تكوين روحية في مراكز الزوايا، فضلا عن موهبته الذاتية المتميزة، التي تفجرت بقوة لافتة في فترة قصيرة من العمر، حتى كانت حياته ومضة فن خصبة وراقية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، تصنع علامة مميزة في مسار الشعر الشعبي الجزائري الحديث والمعاصر .

تتجلى قصيدة الرحلة والطير بوصفها نموذجا فنيا متميزا في شعرية الشيخ السماتي، ليس بحضور عددها الظاهر، ولكن ببنيتها الرمزية التي تستند إلى رحلة متخيلة؛ بطلها طائر القمري، تشق المسافات وتقطع المفازات من أجل أداء رسالة؛ هي في الواقع تجربة انسانية، رافدها الشوق، أو الحنين، أو الشكوى، وتتوجه تلك الرسالة غالبا إلى شيوخ الشاعر الروحيين؛ طلبا لنصرتهم وتعظيما لهم .

يأخذ السرد طابعا متميزا في هذه القصيدة؛ لأنه يروي وقائع الرحلة التي يركب الشاعر بيئتها الزمانية والمكانية من خلال تحديد لحظة بدايتها، وتصوير تفاصيل طريقها، الذي لا يخلو من وحشة وقفار ومخاطر تواجه طائر القمري، وتنتهي الرحلة إلى مواعدها ومكانها، حيث تبلغ رسالتها، وفي خضم ذلك تكون التجربة مفتوحة على كثير من العواطف والاشواق الإنسانية الحميمة، التي ينطوي عليها تصوير الرحلة والتفاعل بالمكان .

تنطوي قصيدة الرحلة والطير على منزع روحي بالغ الأهمية، يتجلى في ارتباطها غالبا بشيخ الطريقة، الذي يلجأ إليه الشاعر مادحا مستنصرا، وفي لغة الوصف التي تصور علاقة الشاعر بشيخه، حيث لا يخرج

معجم تلك اللغة عن إطار اللغة الصوفية، التي تصنع سجلا متكاملا من المفردات و الصيغ الروحية في بيان مقام الشيخ ومكانته لدى الشاعر، الذي يؤكد عبر قصيدته عمق منزعه الروحي الذي نشأ عليه .
إذا اردنا أن نميز شعرية الشيخ السماتي، فإن الظاهر أنها شعرية تتأسس على محورين أساسيين من جهة الموضوع: أولهما فن الغزل الذي برع فيه واخترق به اسماع جيله والاجيال اللاحقة، وثانيهما قصيدة الرحلة والطير التي تشكل منزعا إنسانيا وروحيا عميقا، لا تكتمل صورة الشاعر الفنية، و لا خصوصية إبداعه الشعري، الا بالوقوف عليه، وذلك هو المبدأ والمنتهى الذي خلصنا إليه في هذه الدراسة .

هوامش وإحالات المقال

- ¹ - حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، ط 2، منشورات اقرأ، بيروت 1980، ص: 11
- ² - التلي بن الشيخ، ضمن: سعيدة حمزاوي، رؤية نقدية لمنطلقات التفكير في الأدب الشعبي، مجلة الأثر مجلد 05، عدد 05، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة – الجزائر. 2006، ص: 222
- ³ - ابراهيم شعيب، الديوان العاتي للشيخ السماتي، ط1، خزانة التراث الشعبي، الاغواط 2012، ص: 09
- ⁴ - نفسه، ص: 13
- ⁵ - منطقة بدوية تابعة لبئر الرخم بأولاد جلال
- ⁶ - سعاد حميتي، جماليات التلقي في ديوان الشيخ السماتي، مجلة علوم اللغة العربية وأدائها، جامعة الوادي، الجزائر، مجلد 08 عدد 10 السنة 2016، ص: 148
- ⁷ - نفسه، ص: 148
- ⁸ - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي عند العرب، ط 03، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1992، ص: 14
- ⁹ - سعاد حميتي، جماليات التلقي في ديوان الشيخ السماتي، ص: 149
- ¹⁰ - عبد اللطيف حني، دينامية الصورة الفنية في شعر الشيخ السماتي: من الهدوء والسكون الى التتابع والحركة، جامعة أدرار، الجزائر مجلة الحقيقة، مجلد 14، العدد 02 السنة 2015، ص: 248
- ¹¹ - نفسه، ص: 248
- ¹² - سعاد حميتي، جماليات التلقي في ديوان الشيخ السماتي، ص: 150
- ¹³ - ابراهيم شعيب، الديوان العاتي، ص: 194
- ¹⁴ - ابراهيم شعيب، الديوان العاتي، ص: 212
- ¹⁵ - نفسه
- ¹⁶ - نفسه، ص: 194
- ¹⁷ - نفسه، ص: 220
- ¹⁸ - نفسه، ص: 194
- ¹⁹ - نفسه، ص: 195
- ²⁰ - نفسه، ص: 212
- ²¹ - عبد اللطيف حني، دينامية الصورة الفنية في شعر الشيخ السماتي: من الهدوء والسكون الى التتابع والحركة، ص: 246
- ²² - نفسه .
- ²³ - ابراهيم شعيب، الديوان العاتي، ص: 239
- ²⁴ - نفسه، ص: 220-221
- ²⁵ - نفسه، ص: 212
- ²⁶ - حميد لحمداني، بنية النص السردي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت 1991، ص: 33 – 36
- ²⁷ - ابراهيم شعيب، الديوان العاتي، ص: 253
- ²⁸ - نفسه، ص: 253 – 254

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- ابراهيم شعيب ، الديوان العاتي للشيخ السماتي ، ط1 ، خزانة التراث الشعبي ، الاغواط 2012
- 2- التلي بن الشيخ ، ضمن : سعيدة حمزاوي ، رؤية نقدية لمنطلقات التفكير في الأدب الشعبي ، مجلة الأثر مجلد 05، عدد 05 ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة – الجزائر. 2006
- 3- جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي عند العرب، ط 03 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء 1992
- 4- حسين نصار ، الشعر الشعبي العربي ، ط 2 ، منشورات اقرأ ، بيروت 1980
- 5- حميد لحمداني ، بنية النص السردى ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت 1991
- 6- سعاد حميتي ، جماليات التلقي في ديوان الشيخ السماتي ، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها ، جامعة الوادي - الجزائر ، مجلد 08 عدد 10 السنة 2016
- 7- عبد اللطيف حني ، دينامية الصورة الفنية في شعر الشيخ السماتي : من الهدوء والسكون الى التتابع والحركة ، مجلة الحقيقة ، جامعة أدرار - الجزائر ، مجلد 14 ، العدد 02 السنة 2015